

حرب التحرير و تكون الدولة الجزائرية

د. قدوسي محمد
جامعة سيدي بلعباس

إن واقعنا اليوم، و الذي يتميز سياسيا و اجتماعيا و اقتصاديا، بكل موصفات المجتمع المختلف أو على الأقل بالمجتمع الغير متحضر، يفرض علينا مجابهة جديدة و صريحة لماضي، فالتساؤل عن حاضرننا يقودنا إلى الرجوع إلى التاريخ باعتبار أن حاضرننا ورثناه من ماضينا فلا نستطيع أن نفصل كل الانفصال عن هذا الماضي. فاليوم و أكثر من أي وقت مضى مدفوعين إلى الوعي التاريخي هذا الوعي الذي يجب أن يكون صحيحا، متفتحا، مستيرا كي يكون لنا مصدر قوة دائمة و عامل من عوامل البناء و الإنتاج و الإبداع لا قوة تجرنا إلى الوراء فتعيق سيرنا و تحول دون ما تنبغي من تقدم ثابت و انطلاق خير. للتطرق إلى حرب التحرير يمكن القول و هذا حسب أغلب المختصين على أنها من أكبر الظواهر الاجتماعية التي أثرت مباشرة على تاريخ الجزائر المعاصر. هاته الحرب التي امتدت ما بين 1954 إلى 1962 كانت كنتيجة مباشرة لعاملين أساسين :

– عجز الاستعمار الفرنسي على دمج كل الطاقات الجزائرية ضمن نظامه الكولونيالي⁽¹⁾ فرغم السياسات الإصلاحية التي حاول تطبيقها طول فترته الاستعمارية، نجد أن الشعب الجزائري عان من أزمة متعددة الجوانب انعكست مباشرة على بناء الاجتماعية و السياسية و الثقافية.

– عدم قدرة الحركة الوطنية بكل الأحزاب المكونة لها، من تحقيق مطالب الشعب الجزائري خاصة الاستقلال بالوسيلة السياسية خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية و خيبت آمال الجزائريين و تأكدهم من أن الحل السياسي لا ينفع إضافة إلى أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) و تكوين إثر ذلك المنظمة السرية (OS) ثم اللجنة الثورية للوحدة و العمل (CRUA) و أخيرا جبهة التحرير الوطني التي اختارت تاريخ 01 نوفمبر 1954 كتاريخ انطلاق الحرب المسلحة ضد الاستعمار⁽²⁾.

هذه الحرب أفرزت بعد الاستقلال عدة نتائج على كل المستويات و خاصة على المستوى السياسي نريد اليوم من خلال هذه المداخلة إلقاء القليل من الضوء على جانبها. عنوانا مداخلتنا بحرب التحرير و تكون الدولة الجزائرية مستقلة، و ليس بناء الدولة، لماذا؟. لأن في نظرنا الدولة الجزائرية الحالية هي في جانب كبير نتيجة إفرزات و أوضاع

غير عادية (فترة الحرب) عاشتها الجزائر ما بين 1954 و 1962 و ليس بناء الدولة لأن البناء هو عملية واعية تاريخيا (C'est un acte conçu historiquement) يأتي في فترة سلام و أمن و يكون كمنطق يهدف للدخول إلى الحداثة السياسية باعتبار أن الدولة و هذه حسب السوسيولوجي بارتراند بادي كأكبر ابتكار سياسي شهدته المجتمعات الإنسانية.⁽³⁾

فمنذ بيان أول نوفمبر صرح القادة التاريخيين على بناء دولة جزائرية مستقلة ذات مبادئ إسلامية⁽⁴⁾ لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف تكونت هاته الدولة المستقلة، ما هي سماتها على أي أساس تركز في شرعيتها، ما هي طبيعة الفاعلين السياسيين. خاصة محاولة معرفة ما الذي يمكن أن يجمع بين الحرب و تكون الدولة هذا من جهة الثانية محاولة معرفة ما علاقة الأوضاع التي نعيشها اليوم خاصة على المستوى السياسي بهذه الفترة، فترة الحرب. فتاريخ 54-62 لم يكن يمثل حربا تقليديا بين دولتين قائمتين بل كان بين دولة مستعمرة و شعب مستعمر يفتقر إلى مؤسسات مستقلة تمثله.

لذا بدأت هاته الحرب و بعد مرور سنتين من عمرها أي بداية من سنة 1956 تعي ذاتها و ترسم هدفها عن طريق إنشاء مؤسسات سياسية عسكرية⁽⁵⁾ تستطيع بواسطتها ليس فقط الاستمرار في الحرب و لكن كي تمثل كذلك نواة لدولة مستقلة. جاء مؤتمر الصومام: " إن الثورة الجزائرية تنازل من أجل بعث دولة جزائرية على شكل جمهورية اشتراكية و ديمقراطية... ". هاته الدولة استمرت بينيتها و نظامها السياسي بعد الاستقلال إلى اليوم سواء في شكل السلطة أو علاقة هاته الأخيرة مع المجتمع (شرعية تاريخية) أو مع المؤسسات المختلفة السياسية و الاجتماعية » فالأمة التي تمكنت من تحقيق صورة من أروع صور الانبعاث التي سجلها التاريخ المعاصر يجب أن تطور قاعدتها النضالية و تثر بها حتى تتأكد من الاستمرارية الثورية...⁽⁶⁾. فنتيجة لظروف سوسيو تاريخية لم يحاول القادة السياسيين (الثوريين) آنذاك الدولة الأمة (L'état Nation) كما جاء في بعض الكتابات سواء السياسية أو التاريخية⁽⁷⁾ بل الدولة الوطنية (L'état Nationaliste)⁽⁸⁾ التي لا تركز على الأمة كمنع سياسي بل على الوطنية التي تركز بدورها على الايديولوجية الشعبوية (L'idéologie populiste). هاته الشعبوية التي نشأت في مطلع القرن العشرين و ازداد دورها أثناء الحرب، كان محتواها. إيديولوجي ثقافي يهدف إلى التحرر من الاستعمار عن طريق محاولة خلق وحدة وطنية شعبية و من جميع القوى الاجتماعية و السياسية تتجاوز بها الاختلافات المتعددة سواء السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية " و أمام هذا الوضع قرر نفر من الشباب تجاوز أزمة

الحركة الوطنية والإعلان عن تشكيل جبهة التحرير الوطني مهمتها خلق وحدة وطنية تف إلى محاولة العدو الاستعماري " (9).

بعد الإستقلال أصبح محتوى هذه الشعيوية سياسي⁽¹⁰⁾ إذا نجد أن القادة السياسيين واصلوا الارتكاز عليها في تعاملهم مع المجتمع، بمحاولة عدم تفرقت الشعب وخلق التشتت، عن طريق عدم الاعتراف بالتناقضات الاجتماعية و عدم بلورتها سياسيا و بالتالي عدم فبح المجال السياسي و غلقه أمام المنافسة، دائما باسم الخطر الخارجي تارة أو من أجل البناء و التشييد أو من أجل عدم إعطاء الفرصة للقوى الاجتماعية الرجعية أو تارة أخرى نجدها من أجل تسيير الأزمة الاقتصادية في الثمانينات أو باسم التصدي للإرهاب و القضاء عليه.... إلخ. فاجتماعيا، التاريخ يعلمنا أننا لا نستطيع بناء دولة قوية عصرية حديثة بدون وجود للأمة⁽¹¹⁾، إذ تعتبر الأولى كتعبير قانوني و سياسي للثانية. ففي الجزائر توجد الأمة كمعطي تاريخي ثقافي فقط، و ليس كمعطي سياسي، لماذا. لأنه إذا أردنا التكلم على العناصر الأمة الجزائرية كمعطي تاريخي فهي موجودة إذا تعتبر مجموعة من الأشخاص الذين يعيشون في رقعة جغرافية واحدة و توحدهم مجموعة من العناصر منها اللغة الدين المشترك... إلخ، و لكن هل يوجد هيكل (الدولة) مهمته تركيز كل معطيات الأمة بما فيها الإحساس بالوحدة (Le sentiment d'unité) و الشعور المشترك، و تساعد على قوله و تسيير هذا الإحساس و هذا الشعور للصالح العام . فالأمة كمعطي سياسي هي القاعدة و المرجعية و المنبع السياسي للدولة عليها ترتكز و تغذي شرعيتها، و بالتالي بظهور الأمة سياسيا، يظهر و يشكل المجال السياسي المستقل (L'espace politique Autonome) ترجع بواسطة السياسية إلى طبيعتها العمومية، و يرتقي بواسطتها الجزائري من الفرد إلى المواطن الفعال، لكن الطبقة الحاكمة بعد الاستقلال بارتكازها على الإيديولوجية الوطنية ذات المحتوى الشعبي في تكون الدولة لم تربط هاته الأخيرة بقاعدتها و بأساسها ، لأن الأمة هي القاعدة الاجتماعية للدولة و هي منبع الإجماع و أصل الإنتاج السياسي ، بل ربطتها بفترة تاريخية غير زائلة، و رابطتها بتناقضات هذا الوضع على كل المستويات، هي تفاقم الارتباط بين أوصال التركيبة الكلية للدولة لتتحول هذه التركيبة من نظام عضوي لا ينمو من خلال جدلية القوى و العلاقات الداخلية، إلى نظام مجزأ يسند ديناميكية الجدل فيه من الماضي (فترة الحرب)⁽¹²⁾ و من الخارج بشكل أساسي⁽¹³⁾.

هذا خاصة وإذا علمنا أن الدولة في الجزائر الآن و بعد مرحلة ما بعد الإرهاب أصبحت مطلب سوسيولوجي ، بعد ما كانت طرح سياسي إيديولوجي لا نجده إلا في النصوص و الخطب الرسمية. فالمجتمع أصبح

اليوم يطالب بالتنظيم، التطوير التحديث، الرقي، المشاركة السياسية المشاركة في صنع حاضر و مستقبله، أصبح يطلب الشفافية في تسير دواليب الحكم، يطلب العدل، المساواة، التقسيم العادل للخيرات⁽¹⁴⁾. هذه المطالب لا تتجسد حسب الأخصائيين خارج بناء الدولة. فروح العصر اليوم لم تعد تسمح باستمرار النبي السياسية السائدة فقد ماتت الإيديولوجيات التي كانت تبرر الاستبداد جزءا من صياغتها النظرية و التي استفاد منها الملوك شرعيتهم رخوا جدا من ثقافة العصر و حياته(15). فالتطور الاجتماعي يضغط الآن نحو الانفتاح السياسي و العدالة الاجتماعية و القبول بالتعددية السياسية و العرقية و الثقافية، فلم يعد أمام الحكومات سوى التكيف مع المعطيات الجديدة. فحركة التاريخ لا يمكن إيقافها، لكن يمكن توجيهها و التأثير عليها (16). و حركة التاريخ الآن تدفع إلى الحركة و التعددية و بالتالي تدفع إلى بناء الدولة هاته الأخيرة و هذا حسب وليم كانت تعتبر " كأحسن جهاز نستطيع بواسطته على الأمراض المتجمعة المختلفة"(17) فأصبح من مسلمات العلوم الاجتماعية اليوم. أن الدولة القوية العصرية التي تجسد العقلانية و التطور و الرقي، و تشجع قوة العمل و تجسيد التنظيم و التأطير، و هي من أهم الأسباب الاستقرار و عامل أساسي للدخول إلى الحداثة بكل جوانبها فكل مجتمع ناهض، لم يحقق نهضته و تقدمه إلا بعد أن استتب لديه "قيم" و "مؤسسات" و "منظم" تسمح بهذا التقدم و استقراره على أساس متين(18).

الإحالات :

1) – M. Bensaada, le régime politique algérien, enal – Alger 1992

2)- M. Guentari, organisation, Politico – Administrative et militaire de la révolution, TOMEI éd OPU. 2000.P79.

3) – S. Dahlab, mission accomplie éd sahlab 1990 P 231.

4) – Ibid.p.43.

-SAAD. DAHLAB, Mission Accomplie ed DAHLED 1990 P435

(6)- الميثاق الوطني 1976 - ص 7.

7)- A Yafisah la question du pouvoir en Algérie Ed Enap 1990 P 305.

(8) جاءت الوطنية ارتباطا إلى فكرة الوطن، فجاءت الثورة الفرنسي فنادت بشعار " يحيا الوطن " بدلا من شعار يحيا الملك

فأصبح هناك ارتباط مقدسا بين الفرد و الوطن، ففكرة الوطنية تركز على الرقعة الترابية للسكان

(9) – بيان أول نوفمبر النصوص الرسمية للجهة ص 6

10) ASSI Lahouari , L'algerie et la démocratie, ed la se couverte 1995 p 100

(11) - محمد محفوظ الأزمة و الدولة المركز الثقافي العربي 2000. ص 12.

12) ASSI Lahouari , L'algerie et la démocratie, ed la se couverte 1995 p 100

(13) - محمد محفوظ الأزمة و الدولة المركز الثقافي العربي 2000. ص 112.

(14) الدولة الجزائرية المستقلة و هي ولادة تاريخ الاحتلال الفرنسي من خلال المرجعية التاريخية و من خلال إستمرار النمط الإداري الفرنسي.

(15) سياسيا الدولة الجزائر تركز دائما على السيادة الخارجية و اقتصاديا تعتمد على إستاد المواد الاستهلاكية المختلفة بنسبة 95 ٪ من الخارج.

(16) قدوسي محمد، الدولة الوهمية في الجزائر / مجلة الأدب و العلوم الإنسانية، جامعو سيدي بلعباس - الجزائر

العدد 02 السنة 2003 ص 241.

(17) - أصبح العالم اليوم قرية صغيرة من خلال المعلوماتية التي كسرت كل الحواجز و أصبح الشعوب العربية مفتوحة عليه من خلال

السوائل المتعددة (الإعلام ، الهوائيات، الانترنت) و بالتالي أصبحت هته الشعوب ثرى ما يجري هناك في الدولة المتطور و من هنا أصبحت

تقارن و من ثمة تطالب.

¹⁸⁾ W.B quant société et pouvoir en Algérie éd casbab 1998 p 13

المراجع :

بالعربية :

عبد الله العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي 1998

محمد محفوظ، الأمة و الدولة، مركز الثقافي العربي سنة 2000

الأمة و الدولة و الاندماج في الوطن العربي لمجموعة من الباحثين نشر مركز الدراسات الوحدة العربية سنة 1989.

المجلات :

مجلة المستقبل العربي العدد 364 مركز الدراسات الوحدة العربية

مجلة الأدب و العلوم الإنسانية جامعة سيدي بلعباس العدد 02 السنة 2003

بالفرنسية :

✓ M.Bensaada, « Le régime politique algérien », enal Alger 1992

✓ M. Guentari, « Organisation politico-administrative et mûilitaire de la révolution », tome I , ed OPU 2000

✓ B. Badie, « Les deux états , pouvoir et société en occident et en terre d'islam », ed librairie Fayard 1986.

✓ S. Dahlab , « Mission accomplie », ed Dahlab 1990

✓ A. Yahsah, « La question du pouvoir en Algérie », ed ENAP 1990.

✓ Addi Lahouari, « L'Algérie et la démocratie », ed la découverte 1995.